سيكولوجيا الفقد وصدمة ما بعد الكارثة (PTSD) دراسة تحليلية لشخصيات عالية طالب الغوص في آليات الدفاع النفسي التي تتخذها الشخصيات لمواجهة الموت والفقد المتكرر.

The Psychology of Loss and Post-Traumatic Stress Disorder (PTSD): An Analytical Study of Alia Talib's Characters Exploring the Psychological Defense Mechanisms Adopted by Characters to Confront Death and Recurrent Loss

م. م. ايمان مخيبر مصطاف

Assistant Lecturer Eman Mukhayber Mustaf

المديرية العامة لتربية ديالى

قسم الاعداد والتدريب/ شعبة البحث والدراسات/ اللغة العربية / ادب حديث

General Directorate of Education of Diyala

Department of Preparation and Training – Research and Studies Division

bdallhdawd036@gmail.com

الكلمات المفتاحية: سيكولوجيا الفقد، صدمة ما بعد الكارثة (PTSD)، آليات الدفاع النفسي، الكرب المستمر، الانفصال، التسامي، عالية طالب.

Keywords: Psychology of Loss, PTSD, Defense Mechanisms, Continuous Traumatic Stress, Dissociation, Sublimation, Alia Talib.

الملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى استقصاء التداعيات النفسية والوجودية لظاهرتي الفقد المتكرر والموت المجاني في الأدب العراقي المعاصر، متخذةً من المدونة السردية للكاتبة "عالية طالب" ميداناً للتحليل والتطبيق. تنطلق الإشكالية من محاولة فهم الكيفية التي تواجه بها الذات الإنسانية المحاصرة بـ "كرب الصدمة المستمر" (Continuous Traumatic Stress) حتمية الفناء، وتفكيك اضطراب كرب ما بعد الصدمة (PTSD) ليس بوصفه مجرد خلل عيادي، بل كأزمة عميقة في إدراك الزمن وفقدان "الارتياب الأنطولوجي" في المكان والآخر.

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، متكئاً على مقاربات التحليل النفسي الكلاسيكي (نظريات فرويد في آليات الدفاع) وعلم النفس الوجودي (نظريات فرانكل ويالوم في القلق والمعنى)، لتشريح البنية الداخلية للشخصيات الروائية.

وقد خَلصت الدراسة إلى أن شخصيات عالية طالب تلجأ، أمام عجزها عن ممارسة "الحداد الطبيعي"، إلى استنفار شبكة معقدة من "آليات الدفاع النفسي" لحماية الأنا من الانهيار الذهاني. تتدرج هذه الآليات من آليات لاشعورية هروبية (كالإنكار، والانفصال، والتبلد الوجداني) تعمل كمسكنات إسعافية تقي الذات من الاحتراق اللحظي، وصولاً إلى آليات دفاعية ناضجة وإيجابية (كالتسامي، والفكاهة السوداء، والبحث عن المعنى)؛ حيث تتمكن الشخصيات عبرها من إعادة تدوير الخراب، وتطويع ألم الفقد لصياغة مبررات جديدة للبقاء، مما يؤكد انتصار إرادة الحياة وقدرة الجهاز النفسي على ابتكار هندسة نجاة استثنائية في أقسى البيئات المأزومة.

Abstract:

This study investigates the psychological and existential implications of recurring loss and gratuitous death in contemporary Iraqi literature, focusing on the narrative works of Iraqi writer Alia Talib. It examines how individuals living under conditions of continuous traumatic stress confront mortality and how Post-Traumatic Stress Disorder (PTSD) functions not merely as a clinical condition but as a profound crisis affecting the perception of time, place, and human relationships.

Using a descriptive-analytical approach, the study draws on classical psychoanalytic theory, particularly Freud's concepts of defense mechanisms, alongside existential psychology, especially the ideas of Viktor Frankl and Irvin Yalom concerning anxiety and the search for meaning.

The findings reveal that Talib's characters, unable to engage in normal mourning, activate a complex network of psychological defense mechanisms to protect the self from collapse. These range from unconscious escapist strategies such as denial, dissociation, and emotional numbness to more mature and adaptive mechanisms including sublimation, black humor, and meaning-making. Through these processes, the characters transform the devastation of loss into new reasons for survival, demonstrating the resilience of the human psyche and its remarkable capacity to create strategies of endurance in times of extreme crisis.

المقدمة

يقف الإنسان، في جوهره الوجودي، أمام حتمية الفقد بوصفها الصدمة الأولى التي تشرخ جدار الطمأنينة الوهمي الذي يبنيه حول ذاته لحماية كينونته من القلق الكوني. غير أن "الفقد المتكرر" والموت المجاني الذي يفرضه واقع الكارثة المستمرة، يتجاوز كونه حدثاً عابراً في خط الزمن، ليتحول إلى "حالة وجودية (Ontological State) "تعيد تشكيل البنية النفسية والإدراكية للفرد. وفي هذا السياق المأزوم، لا يعود "اضطراب كرب ما بعد الصدمة (PTSD) "مجرد تصنيف عيادي أو ندبة نفسية فحسب، بل يغدو شللاً فلسفياً في إدراك الزمن؛ حيث يُحتجز الكائن الإنساني في "ماضٍ لا يمضي"، ويصبح حاضره مسرحاً ذهنياً لإعادة إنتاج الفجيعة، مما يفقد الواقع ماديته، ويحيله إلى حقل من الألغام الرمزية _ يُنظر للصدمة في الفلسفة الحديثة وعلم النفس المعرفي ليس كحدث في الماضي، بل كاختراق مستمر لنسيج الحاضر_ (Caruth, Cathy, 1996 , pp. 4-5.)

ولما كان الأدب هو الملاذ الأخير لترميم الذات المتشظية، فإنه ينهض بوصفه مختبراً سيكولوجياً وفلسفياً تتجلى فيه أعمق انفعالات الإنسان وأكثرها تعقيداً. وفي المشهد العراقي المعاصر، الذي رُزح لعقود تحت وطأة حروب متناسلة وكوارث متلاحقة لم تمنح ضحاياها "ترف" الحداد الطبيعي، برزت الحاجة الماسة إلى سرديات تفكك هذا الخراب الداخلي. هنا، تبرز التجربة السردية للكاتبة "عالية طالب" كواحدة من أهم المدونات التي لم تكتفِ بالتوثيق السطحي لمشهد الدمار الخارجي، بل توغلت بعيداً نحو "الجيولوجيا النفسية" لشخصياتها، محاولة سبر أغوار الذات التي تقف، مجردة من يقينياتها، وجهاً لوجه أمام فوهة العدم _ يمثل أدب الكوارث في العراق استجابة حتمية لانهيار البنى التقليدية للأمان، حيث تصبح الكتابة بحد ذاتها "آلية دفاع" جماعية يمارسها الكاتب لترويض وحشية الواقع._

تنطلق هذه الدراسة من مقربة فلسفية-نفسية تفترض أن الكائن البشري، حين يُحاصر بموت لا عقلاني ويُجرد من أحبائه تباعاً، فإنه لا ينكفئ نحو الاستسلام السلبي المطلق؛ بل يستنفر جهازه النفسي — بوعي أو دونه — ترسانة من "آليات الدفاع Defense) " .(Mechanismsهذه الآليات، سواء أكانت نكوصية وبدائية كالإنكار المطلق، والانشطار، والكبت، أم كانت آليات ناضجة كالتسامي، والفكاهة السوداء، وإعادة خلق المعنى؛ لا تمثل

مجرد أعراض مرضية، بل هي في جوهرها محاولات أنطولوجية يائسة وضرورية للحفاظ على تماسك "الأنا(Ego) "، وتأجيل الانهيار الكلي للذات أمام عبثية الفناء. (فرانكل ،1982م،23)

أهمية البحث:

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من سعيها الحثيث لتجسير الهوة بين الفلسفة الوجودية (مفاهيم القلق، الموت، والعدم) والتحليل النفسي للأزمات من جهة، وبين النقد الأدبي التطبيقي من جهة أخرى. كما أنها تسلط الضوء على أدب الأزمة العراقي ليس بوصفه أدباً وثائقياً لندوب الحرب، بل بوصفه وثيقة سيكولوجية معقدة تقدم قراءة غير تقليدية لآليات النجاة البشرية في أحلك الظروف.

منهجية البحث:

لتحقيق أهداف الدراسة، اقتضت طبيعة الموضوع الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، متكئاً على مقاربات المنهج النفسي (التحليل النفسي للأدب)؛ وذلك بهدف تشريح النصوص السردية، واستنطاق المسكوت عنه في لاوعي الشخصيات الروائية، وتفكيك سلوكياتها استناداً إلى نظريات علم النفس السريري المتعلقة بالصدمة وحيل الدفاع الذاتي.منهج البحث :المنهج الوصفي التحليلي المدعوم بالمنهج النفسي (التحليل النفسي للأدب).

المبحث الأول

الإطار المفاهيمي والنظري (الصدمة وآليات الدفاع)

قبل الولوج في تشريح المتن السردي للكاتبة "عالية طالب"، واستنطاق شخوصها المثقلة بندوب الحروب وفواجعها، تقتضي الضرورة المنهجية تأسيس قاعدة معرفية واصطلاحية متينة، تشكل "العدسة التحليلية" التي ستُقرأ من خلالها تلك النصوص. إن العلاقة التبادلية بين الأدب وعلم النفس ليست علاقة استعارة سطحية، بل هي تداخل جوهري ومصيري؛ فالأدب يجسد في بنيته السردية والرمزية ما يصوغه علم النفس في قوالبه العيادية، وكلاهما يتقاطعان عند نقطة استقصائية واحدة: "الذات البشرية وهي تصارع أزماتها الوجودية وتصدعاتها الداخلية."

في هذا المبحث، لا نقف عند حدود التعريفات المعجمية أو القاموسية الجافة لـ "الفقد" أو "الصدمة"، بل نسعى لتعميق الفهم الفلسفي والسيكولوجي لهذين المفهومين بوصفهما "انكساراً في البنية الكينونية" للإنسان. إن الكارثة المتمثلة في الموت العنيف أو الفقد المفاجئ، حين تقع، لا

تكتفي بتدمير المحيط المادي للضحية، بل تمتد لتفتت "النسق الرمزي" الذي يستمد منه الفرد إحساسه بالزمن، وبالأمان، وبالمعنى. ومواجهة هذا التفتت الجذري لا تتم عبر الاستسلام الإرادي، بل تتطلب استنفاراً عاجلاً لمنظومة معقدة من آليات الدفاع النفسي، التي تهدف بالدرجة الأساس إلى تخدير الوعي، وترميم الذات، وتأجيل سقوطها المروع في هاوية العدم. بناءً على ذلك، سيُعنى هذا المبحث بتمهيد الأرضية النظرية للدراسة من خلال تفكيك هذه المفاهيم في مطلبين متكاملين؛ ينهض المطلب الأول بمهمة تفكيك "سيكولوجيا الفقد" واستعراض الأبعاد السريرية والوجودية لاضطراب كرب ما بعد الصدمة(PTSD) ، وكيف يُعيد هذا الاضطراب صياغة علاقة الإنسان بالواقع. في حين يختص المطلب الثاني بتشريح "الترسانة الدفاعية" للجهاز النفسي، مستعرضاً أبرز الحيل والآليات — من بدائيتها النكوصية إلى ناضجتها التعويضية — التي يلجأ إليها الإنسان المُعنَّف للتحايل على فداحة الموت والفقد. ويمثل هذا التنظير خطوة إلزامية لتهيئة الأدوات النقدية قبل إسقاطها تطبيقياً على النماذج الروائية لشخصيات "عالية طالب" في المباحث اللاحقة. ويتمثل المبحث هذا بمطلبين:

- **المطلب الأول: سيكولوجيا الفقد واضطراب كرب ما بعد الصدمة(PTSD)**
- **المطلب الثاني: آليات الدفاع النفسي في مواجهة الموت والأزمات**

المطلب الأول

سيكولوجيا الفقد واضطراب كرب ما بعد الصدمة(PTSD)

لا يُعد الفقد في جوهره مجرد غياب فيزيائي لموضوع الحب أو الارتباط، بل هو "صدع أنطولوجي" يضرب صميم الكينونة الإنسانية، ويُجبر الذات على إعادة التفاوض مع واقع فَقَدَ فجأة إحداثياته الآمنة. وعندما يقترن الفقد بظروف كارثية، غير متوقعة، ومُغرقة في العنف — كما هو الحال في بيئات الحروب والنزاعات— فإنه يتجاوز قدرة "الأنا" على معالجته ضمن مسار "الحداد الطبيعي"، ليتحول إلى جرح مفتوح يُعرف سريرياً ونفسياً بـ "اضطراب كرب ما بعد الصدمة.(PTSD) "

أولاً: سيكولوجيا الفقد واستعصاء "عمل الحداد "لفهم التداعيات العميقة للفقد الكارثي، لا بد من العودة إلى التفرقة الجوهرية التي أرساها التحليل النفسي بين "الحداد (Mourning) "و"الاكتئاب أو السوداوية .(Melancholia) "فالحداد، في حالته السوية، هو "عمل نفسي "

(Psychological Work)شاق، تتقبل فيه الذات، تدريجياً وبوعي، حقيقة الغياب، وتقوم بسحب طاقاتها العاطفية (الليبيدو) من المفقود لتعيد استثمارها في الحياة .(يالوم،2021م،17)

ولكن في ظروف الكوارث والموت المجاني والمفاجئ، يُصاب هذا الجهاز النفسي بـ "عطل وظيفي". إن الصدمة الناجمة عن الفجيعة المباغتة تحرم الذات من ترف التدرج في استيعاب المأساة، فيتعثر "عمل الحداد"، وتُحتجز الشخصية في منطقة وسطى بين الإنكار المطلق والانهيار التام. هنا، لا يصبح الفقد مجرد حدث انتهى في الماضي، بل يتحول إلى "حاضر مستمر" يبتلع وعي الفرد، مما يؤدي إلى اغتراب الإنسان عن محيطه، وتمزق شبكة المعاني التي كان يستند إليها في تفسير العالم كأن يُفقد الإيمان بالعدالة، أو الجدوى، أو الأمان_ تُعد مقالة فرويد "الحداد والاكتئاب" (1917) حجر الزاوية في فهم سيكولوجيا الفقد، حيث ميّز بين الحداد كمسار صحي ينتهي بالتصالح مع الواقع، وبين الاكتئاب كتعلق مرضي بالمفقود.(فرويد،(ب،ت)، ص: 121).

ثانياً: اضطراب كرب ما بعد الصدمة (PTSD) كأزمة في إدراك الزمن تتجاوز المقاربة الفلسفية المعاصرة لاضطراب (PTSD) كونه مجرد مجموعة من الأعراض الفسيولوجية أو العصبية، لتنظر إليه بوصفه "شللاً في الزمنية الإنسانية". فالصدمة الكارثية تدمر "الخط السردي" لحياة الإنسان (الماضي، الحاضر، المستقبل)، وتُخضع الضحية لديكتاتورية الذاكرة المصدومة.

ويمكن تفكيك هذا الاضطراب نظرياً، تمهيداً لإسقاطه لاحقاً على الشخصيات السردية، عبر ثلاثة محاور أو زملات عَرَضية رئيسية، لا تعمل كأمراض بحتة، بل كآليات بقاء مشوهة. تُفهم أعراض صدمة ما بعد الكارثة حديثاً على أنها "الجسد وهو يتذكر ما عجز العقل عن استيعابه". انظر الطرح الرائد للطبيب النفسي بيسيل فان دير كولك حول الذاكرة الصدمية واقتحام الماضي للحاضر في: بيسيل فان دير كولك، الجسد يحفظ التسجيل (عكاوي، 2022، ص:118)

1. **الاسترجاع الاقتحامي :(Intrusive Re-experiencing)** لا تُخزن الذاكرة الصدمية كقصة يمكن تذكرها إرادياً، بل تُحفر كشظايا حسية وانفعالية. تنفجر هذه الشظايا في حاضر الضحية على شكل "استرجاع فلاشي (Flashbacks) "وكوابيس، حيث تعيش الذات رعب الكارثة مراراً وتكراراً، وكأنها تحدث الآن، مما يلغي المسافة الفاصلة بين "الحدث الماضي" و"الأنا الحالية."

2. **التجنب والانفصال :(Avoidance and Dissociation)** لحماية ما تبقى من بنيتها، تلجأ الذات المصدومة إلى تجميد عواطفها (التبلد الانفعالي) والهروب من أي منبه (مكان، شخص، أو حتى فكرة) قد يُوقظ وحش الذاكرة. يصل هذا التجنب إلى مراحل الانفصال التام عن الواقع، حيث تنفصل الشخصية عن جسدها ومحيطها كدرع واقٍ أخير ضد الألم المفرط.
3. **فرط الاستثارة واليقظة المفرطة :(Hyperarousal)** تعيش الذات في حالة تأهب قصوى ودائمة، ترقباً لكارثة قادمة لا محالة. هذا التوجس الوجودي المستمر يستنزف طاقة الفرد، ويخلق حالة من الارتياب الحاد في كل ما يحيط به، مما يدمر قدرته على بناء علاقات اجتماعية سوية أو الشعور بالاستقرار.

إن اضطراب (PTSD) في سياق الفقد المتكرر، يخلق ما يسميه علماء النفس بـ "الافتراضات المحطمة .(Shattered Assumptions) "فالإنسان السوي يبني حياته على افتراض أن العالم مكان خيّر، وأن للأحداث معنى مبرراً، وأن الذات جديرة بالحماية. الفقد الكارثي يهشم هذه الافتراضات الثلاثة، تاركاً الشخصية في العراء الوجودي، بلا بوصلة وبلا غطاء، مما يُحتم عليها ابتكار "آليات دفاعية" استثنائية لمنع التلاشي التام، وهو ما سيتم تفكيكه في المطلب القادم - نظرية "الافتراضات المحطمة" ترجع لعالمة النفس روني جانوف–بولمان، التي تؤكد أن الصدمة تدمر القناعات الضمنية التي تحافظ على توازننا النفسي اليومي.(4–6 ،1992. Janoff–Bulma)

ثالثاً: متلازمة "الصدمة المستمرة (Continuous Traumatic Stress) "وإشكالية الـ "ما بعد "من الضروري في هذا السياق الأكاديمي، وتحديداً عند مقاربة الأدب العراقي، تفكيك مصطلح) ما بعد (Post – في اضطراب .(PTSD) فالنظريات السريرية الكلاسيكية للصدمة تفترض أن الحدث الكارثي قد وقع وانتهى، وأن الضحية تعيش الآن في بيئة "آمنة" تعاني فيها من أصداء ماضٍ مرعب. غير أن سيكولوجيا الفقد في نصوص "عالية طالب" تنبع من بيئة مأزومة لا يمثل الموت فيها حدثاً استثنائياً عابراً، بل هو "قاعدة يومية" و"بنية مستمرة."

هذا التعقيد يفرض علينا استعارة وتفعيل مفهوم "كرب الصدمة المستمر(CTS) "، حيث لا توجد مسافة زمنية أو مكانية تفصل بين الذات ومصدر التهديد. إن الشخصية المأزومة هنا

لا تتعافى من صدمة الأمس، بل تتأهب لصدمة الغد. هذا الالتحام الشرس بين الذاكرة المثقلة بالفقد والتوقع الحتمي لفقدٍ قادم، يخلق حالة من "الاختناق الوجودي" الذي يُجهض أي محاولة للتعافي الخطي، ويجعل من التوجس حالةً كينونية ثابتة في هوية الفرد، لا مجرد عارض مرضي طارئ يمكن علاجه بانتهاء المسبب. _ Psychology of Trauma. (New York: Free Press, يشير مفهوم "الصدمة المستمرة (Continuous Traumatic Stress) "إلى الحالات التي يكون فيها التهديد بالعنف المستقبلي حقيقياً ومستمراً، مما يجعل أعراض الصدمة —كفرط الاستثارة والتجنب— استجابة تكيفية بيولوجية لواقع خطر، وليس مجرد خلل إدراكي لحدث انقضى. وُضع هذا المصطلح أساساً لدراسة ضحايا النزاعات الممتدة، ويُنظر في هذا السياق إلى طروحات جيليان ستراكر حول الصدمة في ظل العنف المستمر .

رابعاً: الفقد المتكرر والمحو التدريجي لـ "الأنا "إن تتالي الخسارات (موت الأقارب، الأصدقاء، انهيار الأمكنة الأليفة) لا يشتغل داخل النفس البشرية بعملية الجمع الحسابي البسيط للأحزان، بل يعمل وفق متوالية تدميرية تقوض "الحدود الصلبة" للأنا .(Ego Boundaries) فمع كل فجيعة جديدة، تُقتطع من الذات مرجعياتها التي تُعرّف بها نفسها، وتصل الشخصية إلى مرحلة من "الإنهاك الوجودي" المطلق.

في هذه المرحلة، يصبح الاستثمار العاطفي في أي علاقة إنسانية جديدة أمراً محفوفاً برعب الفقدان المسبق. هذا الخوف المرضي من الارتباط، كاستجابة استباقية للصدمة، يعزل الشخصية في "منفى داخلي"، حيث يُستبدل العالم الحي النابض بشبكة من الأشباح الغائبة. إن الذات هنا تقف على حافة التلاشي؛ فالواقع المادي يغدو شديد القسوة والسيولة بحيث لا يمكن الركون إليه، والذاكرة تغدو عبئاً شائكاً لا يُحتمل .وأمام هذا المأزق الأنطولوجي المزدوج —عجزٌ تام عن العيش في حاضر مهدد، وعجزٌ مماثل عن النسيان— لا يتبقى للجهاز النفسي البشري سوى إعلان حالة "الطوارئ القصوى"، واستدعاء منظومته الدفاعية والتحايلية بشتى أشكالها وتجلياتها لصد هذا الخطر الماحق. وهذا التحول النفسي العميق هو ما يمهد الطريق موضوعياً ومنهجياً لتفكيك "آليات الدفاع النفسي"، والتي ستكون المحور الأساس في المطلب الثاني _ يُحدث الفقد المتكرر حالة من الانسحاب العاطفي كنوع من "الموت الرمزي الاستباقي" لحماية الذات من ألم فجيعة جديدة. للمزيد حول آليات انكماش الأنا واضطرابات التعلق الناتجة عن الصدمات المركبة والمتتالية.(هيرمان، (ب،ت)، ص: 172)

المطلب الثاني: آليات الدفاع النفسي في مواجهة الموت والأزمات

عندما تقف الذات الإنسانية على حافة الانهيار التام إثر تعرضها لـ "صدمة كبرى" تفوق قدرتها الإدراكية على الاستيعاب، فإن الجهاز النفسي لا يرفع راية الاستسلام بسهولة. بل يعمد، في حركة لاشعورية سريعة، إلى تفعيل ما يشبه "حالة الطوارئ الوجودية"، مستنفراً شبكة معقدة من الحيل والمناورات التي يُطلق عليها في أدبيات التحليل النفسي مصطلح "آليات الدفاع " (Defense Mechanisms).لا تشتغل هذه الآليات بوصفها ترفاً سلوكياً أو مجرد أعراض لمرض نفسي، بل هي في جوهرها "هندسة بقاء (Survival Engineering) "يمارسها الـ "أنا " (Ego)لحماية كينونته من التفتت تحت ضغط القلق الهائل، وللحفاظ على حد أدنى من التوازن الداخلي وسط فوضى الموت الخارجي.

أولاً: الماهية الفلسفية والتحليلية لآليات الدفاع في السياق الكلاسيكي للتحليل النفسي، وُصفت آليات الدفاع بأنها عمليات عقلية لاشعورية تُشوه الواقع الخارجي أو الداخلي تكتيكياً لتخفيف حدة الصراع والقلق _ تُعتبر "آنا فرويد" المؤسس الفعلي للتصنيف المنهجي لآليات الدفاع، حيث بينت كيف يصارع الـ "أنا" لتجنب الألم الناشئ عن تهديدات الهو والأنا الأعلى والواقع الخارجي(فرويد،(ب،ت) ،ص:23)_ ولكن، عند وضع هذه الآليات في مختبر "الكارثة المستمرة" والموت المجاني، يكتسب المفهوم بُعداً أنطولوجياً أعمق؛ فهي لم تعد مجرد حيل لخفض التوتر المرتبط بالرغبات المكبوتة، بل تحولت إلى "متاريس إدراكية" تصد زحف العدم. إن الذات المأزومة تلجأ إلى هذه الآليات لتعيد كتابة سيناريو الفجيعة بطريقة محتملة، محاولةً بذلك إيجاد مسافة فاصلة —ولو كانت وهمية— بينها وبين الحدث الصادم العنيف (الحرز،2014م،27)

ثانياً: الآليات النكوصية والبدائية (جدار الصد الأول) في اللحظات الأولى من وقوع الفقد الكارثي، أو تحت وطأة التهديد المباشر بالموت، تعجز المنظومة العقلانية عن معالجة البيانات، فتتراجع الذات إلى استخدام آليات دفاعية "بدائية .(Primitive Defenses) "تتسم هذه الآليات بشدة إنكارها للواقع أو تشويهه المفرط، ومن أبرز تجلياتها في أزمات الحروب:

1. الإنكار :(Denial) ليس الإنكار هنا كذباً إرادياً، بل هو "عمى نفسي" مؤقت وإلزامي. يرفض الجهاز النفسي الاعتراف بحدوث الموت أو الفقد لأن التصديق اللحظي به يعني الجنون أو التلاشي. إنها محاولة الذات إيقاف الزمن عند اللحظة التي سبقت الكارثة مباشرة.

الانشقاق أو الانفصال :(Dissociation) عندما يصبح الألم الجسدي أو النفسي غير قابل للاحتمال، تقوم الذات بشطر وعيها. تنفصل الشخصية عن الحدث فتراقبه وكأنها طرف خارجي، أو تفصل المشاعر عن الذكريات، فتحكي عن أفظع مشاهد الموت بتبلد عاطفي تام. هذا الانفصال هو درع واقٍ يحمي النواة المركزية للشخصية من الاحتراق الكامل بصدمة الفقد.

_ في دراسات اضطراب ما بعد الصدمة(PTSD) ، يُنظر إلى الانفصال (Dissociation) كآلية بقاء أولية تُبقي الجسد حياً بينما يغيب الوعي عن مسرح الجريمة لتجنب الانهيار. (دير كولك،2022م، 81)_

2. الإسقاط :(Projection) حيث تقوم الذات المنتهكة والمذعورة بإسقاط رعبها الداخلي وعجزها على محيطها، فتصبح مرتابة وتترجم العالم كله كعدو متربص، وهي حيلة لاشعورية لتبرير حالة الاستنفار الداخلي الدائم.

ثالثاً: الآليات الناضجة والتعويضية (خيمياء الألم) إذا كانت الآليات البدائية تعمل كمسكنات إسعافية لحظية، فإن استمرار الحياة يتطلب الانتقال إلى آليات استيعابية "ناضجة Mature) " .(Defensesهذه الآليات لا تلغي الألم ولا تنكر الموت، بل تعيد تدويره وتوظيفه بطريقة تضمن استمرارية الذات وفاعليتها:

1. التسامي والإعلاء :(Sublimation) ويُعد من أرقى آليات الدفاع النفسي. وفيه تقوم الذات بتحويل طاقة الحزن والغضب التدميرية الناجمة عن الفقد إلى نشاط إبداعي أو اجتماعي بنّاء. كأن تلجأ الشخصية المصدومة إلى الكتابة، أو الفن، أو العمل الإغاثي. التسامي هنا هو "خيمياء الألم"؛ حيث يُستحال الموت إلى مادة خام لصناعة حياة بديلة . _ قسّم الطبيب النفسي "جورج فيلانت" آليات الدفاع إلى مستويات هرمية، معتبراً (التسامي) و(الفكاهة) في قمة الهرم الدفاعي الناضج الذي يضمن للصحة النفسية مرونتها في أقسى الظروف. يُنظر في (فيلانت ،1977م،8_10)
2. الفكاهة السوداء :(Dark Humor) في البيئات المأزومة والتي تعتاد الموت اليومي، تبرز الفكاهة السوداء كآلية دفاعية بالغة التعقيد. السخرية من الموت أو من عبثية

الكارثة ليست استهانة بها، بل هي محاولة لسلب "الجلاّد" أو "الموت" هيبته المرعبة. إنها استعادة لسيطرة الذات الوهمية على موقف لا تملك فيه أي سيطرة واقعية.

3. التعقلنة والبحث عن المعنى :(Rationalization & Meaning-making) تواجه الذات عبثية الفقد عبر محاولة تأطيره فلسفياً أو أيديولوجياً أو غيبياً. إن إيجاد تفسير أو "معنى" للموت (كاعتباره تضحية، أو تطهيراً، أو قدراً محتوماً) يقلص من وحشية الصدمة العشوائية، ويمنح الذات مبرراً لاستئناف العيش، مصداقاً للطرح الوجودي القائل بأن مَن يملك "لِمَاذا" يعيش من أجلها، يمكنه تحمل أي "كَيف" مفروضة عليه_ يشير "فيكتور فرانكل" إلى أن المعاناة تتوقف عن كونها معاناة في اللحظة التي تكتشف فيها معنىً لها. وهذا "التسامي بالمعنى" هو الآلية الدفاعية الأقوى ضد العدم. (فرانكل،1982م، ص: 98) _ تُعد هذه الشبكة من آليات الدفاع —بشقيها البدائي والناضج— المفتاح السيكولوجي الأساس الذي سيمكننا في المباحث القادمة من فك شيفرة شخصيات "عالية طالب"، وقراءة تصرفاتها الانفعالية ليس كحالات مرضية معزولة، بل كنضالات وجودية مستميتة للنجاة من مقصلة الحروب والخراب.

رابعاً: استنزاف المنظومة الدفاعية (عندما يخترق الموت أسوار الذات) لا يمكن الركون إلى افتراض أن "آليات الدفاع النفسي" تمتلك حصانة مطلقة وقدرة لانهائية على حماية الذات. في سياقات "الكرب المستمر (Continuous Stress) "والفقد الكارثي المتسلسل —الذي يميز البيئة المنتجة لأدب عالية طالب— تتعرض هذه الترسانة النفسية لحالة من "الإنهاك الوظيفي " .(Functional Exhaustion) فالذات تستهلك قدراً هائلاً من طاقتها النفسية (الليبيدو) لمجرد إبقاء آليات كـ "الإنكار" أو "الكبت" فعالة. ومع توالي الضربات الصدمية، قد تتصدع هذه الجدران الدفاعية، لتجد الذات نفسها في حالة من "التعرية الوجودية" الكاملة أمام وحشية الواقع. وعندما تنهار آليات الدفاع الناضجة (كالتسامي أو التعقلنة)، وترتد الشخصية إلى الآليات البدائية بصورة مفرطة، فإنها تنزلق نحو العصاب الحاد، أو ربما الذهان، حيث تنقطع صلتها بالواقع تماماً. هذا الانهيار ليس فشلاً أخلاقياً للشخصية، بل هو النتيجة الحتمية لوضعِ جهازٍ نفسي بشري محدود أمام قدرٍ غير محدود من الفظائع. يُعرف هذا بـ "انهيار الأنا (Ego Breakdown)"، حيث تؤكد نظريات التحليل النفسي الحديثة أن استخدام آليات الدفاع يستهلك

طاقة نفسية كبيرة، وحين يستنفد الفرد موارده في بيئة صدمية مستمرة، تنهار تلك الآليات تاركة الفرد فريسة للاكتئاب السريري أو الذهان.(فينيشيل،(ب،ت)، 200)

خامساً: السرد بوصفه "مختبراً عيادياً" للآليات الدفاعية (توطئة للانتقال التطبيقي) بناءً على ما تقدم من تأصيل نظري، تتضح لنا الكيفية التي يشتغل بها الأدب —وتحديداً السرد— ليس كمرآة عاكسة للواقع فحسب، بل كـ "مختبر سيكولوجي" آمن تُختبر فيه متانة أو هشاشة هذه الآليات الدفاعية. إن الكاتبة، حين تضع شخصياتها في أتون الفقد، فهي عملياً تضع "الأنا" أمام اختبارها الأنطولوجي الأقسى.

وبالتالي، فإن مهمة النقد النفسي هنا لا تتوقف عند إطلاق الأحكام الجاهزة على تصرفات الشخصيات (بالجبن، أو الجنون، أو البطولة)، بل تتجاوز ذلك لتشريح سلوك الشخصية بوصفه "آلية دفاعية" مشفرة. فحين تصاب بطلة روائية بالخرس بعد مقتل أخيها، نحن لسنا أمام حبكة درامية عابرة، بل أمام آلية "انفصال (Dissociation) "وحجب لاشعوري للواقع. وحين تنخرط شخصية أخرى في نوبات سخرية هستيرية وسط الخراب، نحن نقرأ آلية "الفكاهة السوداء" وهي تصارع العدم. هذا التشابك النظري الدقيق بين سيكولوجيا الفقد، وصدمة ما بعد الكارثة، وترسانة الدفاع النفسي، هو ما يشكل "العدسة المكبرة" التي سننتقل بها الآن لتفكيك المتن السردي في أعمال "عالية طالب."

المبحث الثاني

المرجعيات الضاغطة وتمثلات الصدمة في أدب عالية طالب

بعد أن أرسى المبحث الأول الركائز النظرية والمفاهيمية لسيكولوجيا الفقد وآليات الدفاع النفسي، تبرز الحاجة المنهجية للانتقال من "التجريد العيادي" لعلماء النفس، إلى "التجسيد السردي" الذي تنهض به الرواية والقصة. إن النص الأدبي لا ينشأ في فراغ، بل هو ابن بيئته ومرآة لتصدعاتها؛ وفي المشهد العراقي المعاصر، لا يمكن قراءة الأدب بمنأى عن "المرجعيات الضاغطة" —السياسية والاجتماعية والأمنية— التي حولت الجغرافيا إلى حقل ألغام، والتاريخ إلى سلسلة من المآتم المؤجلة.

تمثل التجربة السردية للكاتبة "عالية طالب" وثيقة شديدة الحساسية في التقاط هذه الذبذبات الصدمية. فهي لا تكتب عن الموت كفكرة ميتافيزيقية بعيدة، بل تكتب عن "الموت

اليومي" الذي يطرق الأبواب ويختطف الوجوه المألوفة. شخوصها السردية ليسوا أبطالاً ملحميين يبحثون عن المجد، بل هم ذوات هشة، مُحاصرة، تبحث عن مسوغ واحد للبقاء في بيئة تتقن صناعة الفناء.

يسعى هذا المبحث إلى استقراء هذه "البيئة المأزومة" بوصفها الحاضنة الأساسية التي شوهت سايكولوجية الشخصيات وفرضت عليها حالة الطوارئ النفسية المستدامة. سيتم تفكيك هذا الطرح عبر مطلبين: يتناول **المطلب الأول** طبيعة هذه البيئة المنتجة للخوف وافتقاد المكان الآمن، بينما يغوص **المطلب الثاني** في رصد التجليات السريرية والسلوكية لاضطراب الصدمة (PTSD)على أجساد ووعي تلك الشخصيات داخل المتن الروائي.

المطلب الأول

البيئة المأزومة وأثرها في تشكيل سايكولوجية الشخصيات

لا يمكن تفكيك البنية النفسية لشخصيات عالية طالب دون تفكيك "الوعاء المكاني والزماني" الذي يحويها. إن البيئة في سردياتها ليست مجرد "ديكور خلفي" تتحرك أمامه الأحداث، بل هي "فاعل قمعي" وشريك أساسي في صناعة الفاجعة. هذه البيئة، التي تشكلت ملامحها بفعل حروب متناسلة، وحصار اقتصادي خانق، وعنف إرهابي عشوائي، تحولت إلى ما يمكن تسميته بـ "الديستوبيا الواقعية"؛ حيث تنهار كافة مقومات الأمان البشري، ويصبح الاستثناء (وهو الموت) قاعدة، والقاعدة (وهي الحياة السوية) استثناءً طارئاً .

تُعد "الديستوبيا الواقعية" في الأدب العراقي انعكاساً لانهيار العقد الاجتماعي والأمني، حيث تُستبدل سرديات البناء بسرديات الخراب، ويصبح النص الأدبي مدونة لـ "تاريخ الألم الجَمْعي". بشارة،2003م،نماذج مختارة)

أولاً: الجغرافيا المفخخة وسقوط وهم "المكان الآمن "من أهم الافتراضات النفسية التي يحتاجها الكائن البشري للحفاظ على اتزانه هو الإحساس بـ "أمان المكان" (البيت، الشارع، المدينة). غير أن البيئة المأزومة في نصوص الكاتبة تعمل على تهشيم هذا الافتراض جذرياً. الشارع العراقي في سردياتها ليس فضاءً للعبور أو اللقاء الاجتماعي، بل هو "مصيدة" مفتوحة على احتمالات الانفجار والغياب.

هذا التحول الجذري في وظيفة المكان يخلق لدى الشخصيات حالة من "الرهاب المكاني .(Topophobia) "فالبيت الذي يُفترض أن يكون الملاذ الأخير لـ "الأنا"، تُخترق جدرانه بأصوات الانفجارات، وتُلوَّن غرفه بغياب الراحلين، ليتحول من مساحة للسكينة إلى "متحف للذاكرة المصدومة". هذا الفقدان للأمان المكاني يُجبر سايكولوجيا الشخصيات على التقوقع والانكفاء نحو الداخل، حيث تصبح العزلة الجسدية أولى محاولات الذات لتقليل مساحة الاحتكاك مع واقعٍ يتربص بها. يُشير جاستون باشلار في تنظيراته حول المكان إلى أن "البيت هو ركننا في العالم.. إنه كوننا الأول". ولكن في أدب الأزمات، يُنتهك هذا الكون ويُفرغ من مضمونه الأمني.(باشلار، 2006م، ص: 231).

ثانياً: صناعة "الموت المجاني" واغتيال فكرة المستقبل إن الفقد في سرديات عالية طالب لا يأتي كنتيجة لسياق طبيعي (كالهرم أو المرض العادي)، بل يأتي مباغتاً، عنيفاً، و"مجانيّاً". المجانية هنا تعني انعدام المبرر الأخلاقي أو المنطقي لفقدان الآخرين؛ فالموت يحدث في لحظة اعتيادية جداً (أثناء التسوق، أو الذهاب للعمل، أو الانتظار في محطة). هذه العشوائية في توزيع الموت تصيب الجهاز الإدراكي للشخصيات بالشلل، فلا يعود هناك نسق سببي يمكن للعقل أن يركن إليه لتجنب الخطر.

نتيجة لهذا الموت العبثي، تتعرض سايكولوجية الشخصيات لـ "بتر في الإدراك الزمني". فالإنسان السوي يوجه طاقته النفسية نحو "المستقبل" لبناء الأحلام والخطط، لكن في البيئة المأزومة، يُغتال المستقبل تماماً. تبرمج الشخصيات نفسها —بفعل الصدمات المتكررة— على العيش داخل "زمن نقطي" مقطوع الصلة بالغد؛ لأن التفكير في الغد يعني استدعاء القلق من فقدان جديد. هكذا، تتحول الشخصيات إلى كائنات تعيش "للحظتها" فقط، لا بدافع الشغف، بل بدافع الرعب من المجهول المظلم. الموت المجاني والعشوائي يدمر الافتراض الأساسي بأن "العالم ذو معنى وقابل للتوقع". هذا التدمير هو ما يُدخل الضحية في حالة التأهب المفرط وتوقع الأسوأ دائماً كجزء من الصدمة المستمرة.

ثالثاً: تفكك البنى الاجتماعية وانعدام الثقة (Paranoia) إلى جانب التهديد المادي للمكان، تعكس نصوص عالية طالب أثراً آخر للبيئة المأزومة يتمثل في تمزيق النسيج

الاجتماعي. ففي ظل الأزمات الكبرى وسيادة لغة العنف، تنهار الثقة بين الأفراد، ويتحول "الآخر" من مصدر للدعم والتآزر إلى مصدر محتمل للتهديد والوشاية. ينعكس هذا الانهيار على سايكولوجية الشخصيات في صورة ارتياب دائم (Paranoia) وأزمة ثقة خانقة.

إن الشخصية المأزومة هنا لا تواجه الموت الخارجي فحسب، بل تواجه الخذلان الاجتماعي أيضاً. هذا الخذلان يضاعف من وطأة صدمة(PTSD) ، حيث تفتقد الضحية لـ "الشبكة الداعمة" التي تعتبر أساسية في عملية التعافي النفسي، مما يجبرها في النهاية على مواجهة فجيعتها منفردة، وهو ما يدفعها لاحقاً لاختراع حيلها الدفاعية الخاصة، واللجوء أحياناً إلى الانفصال التام عن هذا الواقع الرديء والمشوه كآلية بقاء وحيدة.

تلعب الشبكة الاجتماعية دوراً محورياً في امتصاص الصدمات. وغياب هذه الشبكة في البيئات الممزقة بالنزاعات الأهلية يؤدي إلى تعقيد اضطراب الصدمة وتحوله إلى صدمة مركبة (Complex PTSD).(هيرمان،(ب،ت)، ص: 121)

المطلب الثاني

تجليات أعراض (PTSD) في سلوك وردود أفعال الشخصيات

إذا كان المطلب السابق قد قارب "البيئة المأزومة" بوصفها مصنعاً للصدمة، فإن هذا المطلب يعمد إلى تتبع ارتدادات تلك الصدمة داخل "الجسد السردي" والوعي الفردي لشخصيات عالية طالب. إن الكاتبة لا تقدم شخصياتها وهي تتحدث عن ألمها بشكل تقريري مباشر، بل تُترجم هذا الألم إلى "سلوكيات" وردود أفعال تتطابق بدقة مذهلة مع المعايير العيادية لاضطراب كرب ما بعد الصدمة (PTSD). هنا، يتحول النص الأدبي إلى ما يشبه "الإضبارة السريرية" التي توثق التشوهات التي أحدثها الفقد المتكرر في السلوك البشري.

تتجلى هذه الأعراض في ردود أفعال الشخصيات عبر ثلاثة مسارات أساسية، تعمل جميعها كدليل مادي على اختراق الكارثة لحصون الذات:

أولاً: الكوابيس والذاكرة الاقتحامية (الماضي الذي يفترس الحاضر)

الذاكرة في نصوص عالية طالب ليست أرشيفاً خاملاً يُستدعى طواعية، بل هي "ذاكرة وشمية" (Somatic/Tattooed Memory) محفورة في الجسد واللاوعي. تتجلى أولى

أعراض الصدمة في فقدان الشخصيات لقدرتها على النوم الآمن؛ فالليل يتحول إلى مسرح دموي لإعادة إنتاج الفجيعة. لا ترى الشخصية المصدومة في منامها "حُلماً مزعجاً"، بل تعيش "استرجاعاً فلاشياً" (Flashbacks) تقتحم فيه صور الفقد والموت والأشلاء وعيها بقوة تفوق قوة الواقع المادي .

يناقش فرويد في كتابه "ما وراء مبدأ اللذة" ظاهرة "إجبار التكرار (Compulsion to Repeat)"، حيث يعود المريض المصدوم في أحلامه إلى الموقف الذي أحدث له الصدمة الأولى، في محاولة للسيطرة عليه بأثر رجعي. (فرويد،(ب،ت)، ص: 67).

هذه الكوابيس والهلوسات النهارية تؤكد فلسفياً أن "الزمن قد توقف" عند لحظة الصدمة. الشخصية تتحرك في حاضر النص بجسدها فقط، بينما وعيها لا يزال مسجوناً في لحظة الانفجار أو لحظة تلقي خبر الموت. إن هذا الاسترجاع القسري يمثل محاولة لاشعورية من الجهاز النفسي لـ "هضم" الحدث الذي كان أضخم من أن يُستوعب لحظة وقوعه، ولكنه بدلاً من هضمه، يظل يمزق الوعي مراراً وتكراراً.

ثانياً: التبلد الوجداني والعزلة (موت الإحساس كدرع للنجاة)

من أكثر التجليات السلوكية تعقيداً في شخوص الكاتبة هو ما يُعرف سريرياً بـ "التخدير النفسي" أو "التبلد العاطفي" (Psychic Numbing/Emotional Blunting). في مواجهة توالي الفواجع والموت العبثي، يصل الجهاز العصبي والنفسي للشخصية إلى نقطة "الاحتراق الشامل" (Burnout). ولتفادي الانهيار العقلي التام، تقوم الذات بـ "إطفاء" مراكز الإحساس لديها.

يُترجم هذا سردياً من خلال شخصيات تبدو "باردة" أو قاسية في تفاعلها مع كوارث جديدة، أو شخصيات تعجز عن البكاء عند فقدان عزيز آخر. هذا الجفاف العاطفي ليس دليلاً على انعدام الإنسانية، بل هو عرض صدمي متقدم؛ فالشخصية تنسلخ عن مشاعرها لأن استشعار حجم الخسارة الحقيقي سيؤدي إلى تمزقها الفوري. يترافق هذا التبلد مع "عزلة اجتماعية" قاهرة؛ إذ تنسحب الشخصية من محيطها لتتقوقع في حيزها الخاص المغلق، رافضةً بناء أي روابط عاطفية جديدة تجنباً لألم فقدانها الحتمي مستقبلاً.

ثالثاً: اليقظة المفرطة وأزمة "الارتياب الأنطولوجي"

الناجي من الصدمة في بيئة الموت العراقي لا يُشفى بمجرد ابتعاده عن الخطر، بل يتحول إلى كائن مستنفر بشكل مرضي. تتجلى أعراض "اليقظة المفرطة" (Hyperarousal) في تصرفات الشخصيات من خلال ردود الأفعال المبالغ فيها تجاه أبسط المنبهات (صوت باب يُغلق بقوة، أو رنين هاتف مفاجئ قد يُحدث نوبة هلع) تُعد اليقظة المفرطة استجابة بيولوجية لبقاء اللوزة الدماغية— (Amygdala) وهي مركز الخوف في الدماغ— في حالة نشاط دائم حتى بعد زوال الخطر الفعلي. (كولك،2022م، ص: 117)

هذه الاستثارة العصبية المستمرة تخلق لدى الشخصيات ما يمكن تسميته بـ "الارتياب الأنطولوجي" (Ontological Paranoia)؛ حيث تفقد الثقة نهائياً في محيطها وفي الآخرين، بل وفي الحياة نفسها. العالم الخارجي في إدراك الشخصية المصدومة لم يعد فضاءً للعيش، بل "حقل رماية" يتربص بها. إنها تقرأ كل تفصيل يومي بوصفه نذيراً بكارثة قادمة، مما يجعلها في حالة استنزاف طاقي مستمر، يعيقها عن الانخراط في أي فعل حياتي طبيعي، ويدفعها دفعاً نحو حافة الاغتراب المطلق.

إن هذه السلوكيات مجتمعة (الاسترجاع الاقتحامي، التبلد الوجداني، واليقظة المفرطة) لا تُطرح في السرد كحالات ضعف اعتباطية، بل بوصفها شهادات إدانة قاسية للواقع الذي حوّل الإنسان من كائن باحث عن المعنى والوجود، إلى مجرد "جهاز إنذار" بشري معطوب، يكافح فقط من أجل عبور يومه دون أن يفقد عقله .

تتشكل أزمة الارتياب نتيجة انهيار "الثقة الأساسية (Basic Trust) "التي يُفترض أن يكتسبها الفرد تجاه العالم. للمزيد حول فقدان الثقة في اضطرابات ما بعد الصدمة .(إريكسون،(ب،ت)، ص: 38)

المبحث الثالث

التحليل النفسي لآليات الدفاع عند شخصيات عالية طالب

بعد أن أسسنا القواعد النظرية للصدمة، وفككنا بيئتها المأزومة واستجاباتها السلوكية في المبحثين السابقين، نصل الآن إلى نقطة التمركز الاستقصائي في هذه الدراسة: "كيف تحايلت الذات المحاصرة على موتها الحتمي؟". إنَّ شخصيات "عالية طالب" لا تقف مكتوفة الأيدي أمام

ماكينة الفقد العشوائية التي تطحنها يومياً؛ بل هي كائنات تدير —في مساحة اللاوعي— معارك أنطولوجية طاحنة للتشبث بأي شكل من أشكال الوجود.

في هذا المبحث، نتجه مباشرة إلى تشريح النصوص القصصية والروائية للكاتبة، متخذين من نظرية "آليات الدفاع النفسي" مشرطاً نقدياً. لا نسعى هنا إلى إدانة السلوك الإنساني في أوقات الكوارث، بل نسعى إلى إضاءة تلك "الحيل الإدراكية" التي يبتكرها الجهاز النفسي كـ "مصدات هيدروليكية" لامتصاص قوة الصدمة وتأجيل الانهيار الشامل للأنا (Ego).

ولغرض الإحاطة المنهجية بهذا التحليل المعقد، سيتم تقسيم اشتغال هذه الآليات في المتن السردي إلى مسارين أساسيين: يختص المطلب الأول برصد "الآليات السلبية (الهروبية واللاشعورية)" التي تنتهج الإنكار وتشويه الواقع كدرع أوليّ للبقاء، في حين يدرس المطلب الثاني "الآليات الإيجابية والتعويضية"، حيث تتجاوز الذات محنة التلقي السلبي لتبتكر، عبر التسامي والمعنى، هندسة جديدة لحياة تخرج من رحم العدم.

المطلب الأول

آليات الدفاع السلبية (الهروبية واللاشعورية)

في المواجهة الأولى مع الفقد الكارثي، يعجز الوعي العقلاني عن احتواء حجم الفجيعة. هنا، تتدخل الآليات اللاشعورية "الهروبية" (Avoidant/Negative Defenses) لتقوم بعملية "تزوير إدراكي" مؤقت، ينقذ الذات من الانهيار الذهاني المباشر. وفي نصوص عالية طالب، تتجلى هذه الآليات كاستجابات اضطرارية تقطع صلة الشخصية بواقعها الدموي المباشر، وتتبلور عبر صورتين رئيسيتين:

أولاً: الإنكار والكبت (حراسة الذاكرة ضد الفجيعة)

يُعد الإنكار (Denial) خط الدفاع الأول والأكثر فدائية الذي يلجأ إليه الإنسان حين يواجه حقيقة لا تطاق كموت الأحباء. في سرديات الكاتبة، لا يظهر الإنكار ككذبة واعية، بل كـ "عمى وجودي" إجباري. ترفض الشخصية المصدومة تصديق خبر الموت، ليس لأنها تجهل الواقع، بل لأن جهازها الإدراكي يرفض استيعاب أن هذا الكائن الذي كان يملأ المكان حضوراً قد تحول فجأة إلى مجرد جثة.

تتجلى هذه الآلية السردية في سلوكيات بطلات عالية طالب، حيث تواصل الزوجة ترتيب ثياب زوجها المقتول، أو تنتظر الأم ولدها المفقود على مائدة الطعام كما لو كان سيعود من مدرسته بعد قليل. هذا السلوك لا يُقرأ نقدياً كحالة خرف أو جنون، بل كـ "إرجاء زمني"؛ حيث تُجمد الشخصية عجلة الزمن لتؤجل لحظة الاعتراف بالفجيعة. إنها تستبدل "واقع الموت المادي" بـ "وهم الحضور الرمزي" لتحمي "الأنا" من التشظي الفوري . يُفسر التحليل النفسي "الإنكار" في حالات الفقد كآلية تهدف إلى إنقاذ الفرد من "انهيار الأنا" المفاجئ؛ فهو يسمح بجرعات تدريجية من الألم إلى أن يصبح العقل قادراً على تقبل الحقيقة الكاملة. يُنظر في سياق إنكار الفجيعة . (آنا فرويد،(ب،ت)، ص: 121).

أما حين لا يجدي الإنكار نفعاً، تتدخل آلية الكبت (Repression) كقوة قمع لاشعورية. تقوم الذات بوأد ذكريات الحادث الصادم ودفعها عميقاً نحو قبو اللاوعي. تتوقف الشخصية عن الحديث عن المفقودين أو تفاصيل الفاجعة، لتبدو أمام مجتمعها وكأنها تجاوزت الأزمة. إلا أن هذا الكبت يمثل "قنبلة نفسية موقوتة"؛ فالطاقة الانفعالية المكبوتة لا تتلاشى، بل تظل تستهلك طاقة الشخصية وتسرب أعراضها على هيئة إرهاق مزمن أو أمراض جسدية (سيكوسوماتية)، مما يجعل العيش اليومي عبئاً ثقيلاً ومفتعلاً.

الكبت، وفقاً لسيغموند فرويد، هو حجر الزاوية الذي بني عليه التحليل النفسي، حيث أن الذكريات الصدمية لا تُمحى بل تُنفى إلى اللاوعي لتستمر في إدارة سلوك الفرد بشكل مضطرب. (فرويد،(ب،ت)،ص: 221)

ثانياً: الانفصال والتفكك (Dissociation) واغتراب الجسد

عندما يكون الألم الجسدي أو النفسي مفرطاً بحيث تتجاوز قدرة الإنكار على تزييفه، تلجأ الشخصيات إلى آلية أكثر تعقيداً وخطورة، وهي "الانفصال" (Dissociation). يعمل الانفصال كـ "قاطع تيار كهربائي" (Circuit Breaker) في الجهاز النفسي؛ حين ترتفع حمولة الصدمة تفوق الاحتمال، يفصل الدماغ الوعي عن الحدث المأساوي لحماية المركز . ففي دراسات صدمات الحروب، يُعد "الانفصال (Dissociation) "آلية البقاء الأكثر شيوعاً أثناء

حدوث الكارثة، حيث يُفرز الدماغ مسكنات طبيعية تقطع الاتصال الحسي لتجنب الجنون أو الموت رعباً. (كولك،2022م، ص: 102)

في النماذج السردية للكاتبة، نقرأ مشاهد تروي فيها الشخصية تعرضها للخطر، أو وقوفها على أشلاء أحبائها، بلغة "باردة، حيادية، وتقريرية"، وكأنها تروي خبراً عن شخص غريب أو تصف مشهداً في فيلم سينمائي. هذا التبلد العاطفي والانفصال التام بين الحدث وانفعاله يشكل درعاً استراتيجياً للنجاة؛ فالشخصية تنفصل عن "جسدها" وعن "واقعها" لكي لا تُسحق تحت وطأة الانهيار.

وفي تجليات أخرى، يأخذ الانفصال شكل الاغتراب عن الواقع (Derealization)؛ حيث تنظر الشخصية المصدومة إلى محيطها كأنه عالم غير حقيقي، ضبابي، ومصطنع. تفقد الألوان دلالاتها، وتفقد الأماكن ألفتها، وتصبح الحياة بأكملها مجرد "مسرحية عبثية" تدور أحداثها أمام عين الشخصية دون أن تتمكن من التفاعل معها أو الانتماء إليها. هذه العزلة اللاشعورية، ورغم نجاحها في تخدير ألم الموت، إلا أنها تترك الشخصية في حالة من الـ "شبه وجود"؛ حية بيولوجياً، لكنها ميتة وجدانياً وحسياً . وهي ظاهرة تبدد الواقع (Derealization) تعكس الانفصال عن المحيط المادي كجزء من الصدمة، حيث يبدو العالم مسطحاً وخالياً من المعنى، وهي استجابة دفاعية لتجنب إعادة الاحتكاك بمصدر الألم.

إن هذه الآليات السلبية توثق سردياً أقصى درجات الانكسار البشري. غير أن استمرار الحياة وتجاوز عقدة الموت يتطلب من الذات أن تنهض من هذا الهروب السلبي لتبتكر آليات أخرى إيجابية تواجه بها العبث وتعيد صياغة المعنى، وهو ما سنعمد لتشريحه في المطلب القادم.

المطلب الثاني:

آليات الدفاع الإيجابية ومحاولات التعافي (التكيف والمواجهة)

إذا كانت الآليات اللاشعورية الهروبية (كالإنكار والانفصال) تمثل "التخدير الإسعافي" الذي يقي الذات من التفتت اللحظي إبان الكارثة، فإن استدامة الوجود في بيئة طافحة بالموت تتطلب ارتقاءً في الأداء النفسي. هنا، يضطر الجهاز النفسي —في محاولة يائسة وجادة للتعافي— إلى استدعاء "آليات الدفاع الناضجة" (Mature Defense Mechanisms). هذه الآليات لا

تعمد إلى تزييف الواقع أو الهروب منه، بل تشتبك معه اشتباكاً واعياً، محاولةً تطويع الألم، وإعادة تدوير الخراب الخارجي لصناعة مسوغات بقاء داخلية، تتجلى في شخوص "عالية طالب" عبر المحاور الآتية:

أولاً: التسامي والإعلاء (Sublimation): خيمياء الألم

يُعد "التسامي" أرقى أشكال الدفاع النفسي وأكثرها نضجاً؛ حيث لا يُكبت الألم، ولا يُنكر الموت، بل تُعاد هندسة الطاقة التدميرية للصدمة لتُصب في قوالب إبداعية أو إنسانية بنّاءة. في مواجهة الفقد المتكرر الذي يسلب الحياة قيمتها، تلجأ بعض الشخصيات السردية إلى تحويل حزنها الخام إلى أفعال ذات أثر اجتماعي أو رمزي (كالانخراط في مساعدة ضحايا آخرين، أو الكتابة، أو التمسك بالحياة بحد ذاته كفعل مقاومة). إن التسامي هنا يشتغل كـ "خيمياء نفسية" تحوّل رماد الكارثة إلى معنى. فعندما تفقد إحدى الشخصيات عائلتها، قد لا تنعزل، بل تتحول إلى "أم بديلة" لمجتمعها، مستبدلةً رابطة الدم المقطوعة بروابط إنسانية أوسع. هذا الارتقاء بالسلوك يعصم "الأنا" من التآكل، ويمنح الذات المكلومة إحساساً متجدداً بالسيطرة والفاعلية في واقع منفلت

يؤكد "جورج فيلانت" في تتبعه لآليات الدفاع الناضجة، أن التسامي (Sublimation) يمنح الفرد قدرة استثنائية على التكيف، حيث يُعاد توجيه الدوافع المظلمة والمؤلمة لخدمة أهداف مقبولة ومثمرة، مما يخلق توازناً صحياً نادراً في بيئات الصدمة (زوينة ،2022 م.ص:23)

ثانياً: هندسة المعنى (Meaning–Making) وتجاوز العدمية

الصدمة في جوهرها هي تحطيم للمعنى؛ فالموت العشوائي يصرخ بعبثية الوجود. ولتجنب السقوط في ثقب العدمية الأسود، تستنفر الشخصيات آلية "إعادة الصياغة المعرفية" أو "البحث عن المعنى". وفقاً للمقاربة العلاجية الوجودية، فإن الإنسان قادر على تحمل أي قدر من المعاناة إذا ما استطاع إيجاد مبرر فلسفي أو روحي لها .

تنبثق هذه الرؤية من مدرسة "العلاج بالمعنى (Logotherapy) "لفيكتور فرانكل، والتي ترى أن الإرادة الأساسية للإنسان ليست البحث عن اللذة، بل البحث عن المعنى، وأن أقصى درجات هذا المعنى تتجلى في كيفية تقبلنا للمعاناة الحتمية.(فرانكل،1982م، ص: 21).

في سرديات عالية طالب، نلحظ كيف تصارع الشخصيات لتأطير فقدانها ضمن سياق أكبر. قد تأخذ هذه الآلية طابعاً غيبياً إيمانياً يرى في الموت تطهيراً أو قدراً، وقد تأخذ طابعاً أيديولوجياً وطنياً يرى في الخسارة تضحيةً من أجل بقاء المكان. إن ابتكار هذا المعنى لا يغير من حقيقة الموت، لكنه يسلب الموت قدرته على تدمير ما تبقى من حياة الضحية، ويشكل "جدار إسناد" يحمي الشخصية من الانهيار الذهاني.

ثالثاً: الفكاهة السوداء والتهكم الوجودي: تجريد الموت من هيبته

في بيئة كالعراق، حيث يتحول الموت إلى تفصيل روتيني، تبرز "الفكاهة السوداء" كواحدة من أعقد آليات الدفاع وأكثرها دلالة على صمود الذات. إن السخرية من الكارثة في نصوص الكاتبة ليست تعبيراً عن اللامبالاة، بل هي أداة هجومية؛ إنها محاولة لـ "تقزيم" الخطر المتعاظم وسلب الفجيعة هيبتها المقدسة والمرعبة.

حين تتهكم الشخصية من دمار بيتها أو من احتمالية موتها بقنبلة، فإنها تمارس فعلاً من أفعال السيادة على القلق. الفكاهة هنا تخلق "مسافة جمالية ونفسية" بين الضحية وجلادها (الموت)، وتثبت أن الجهاز النفسي للإنسان قادر على الابتسام —ولو بمرارة— في وجه العدم، كدليل أخير على انتصار إرادة الحياة ،تُصنف الفكاهة (Humor) كآلية دفاعية عالية النضج؛ لأنها تسمح للمرء بالتعبير الصريح عن الأفكار والمشاعر المروعة دون إحداث ارتباك أو شلل للذات، محولةً المأساة إلى مفارقة محتملة.

الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات

أولاً: الخاتمة

مثّل هذا البحث رحلة استقصائية في التشريح النفسي والفلسفي لأدب الكارثة، متخذاً من المدونة السردية للكاتبة "عالية طالب" حقلاً تطبيقياً لاستقراء سيكولوجيا الفقد وصدمة ما بعد الكارثة .(PTSD) لم تقارب هذه الدراسة النص الأدبي بوصفه مجرد انعكاس فني للواقع العراقي المأزوم، بل عاملته كـ "وثيقة عيادية" حية، ترصد كيف تكافح الذات البشرية بشراسة للحفاظ على تماسكها أمام متوالية الموت المجاني. وقد أثبتت الدراسة أن شخوص عالية طالب ليسوا مجرد ضحايا سلبيين، بل هم كائنات مأزومة تستدعي —بوعي أو دونه— ترسانة معقدة من آليات الدفاع النفسي لتأجيل سقوطها الأخير في العدم.

ثانياً: أهم النتائج

1. **توطين مفهوم الصدمة المستمرة** :أثبتت الدراسة أن شخصيات الكاتبة لا تعاني من (PTSD)بشكله الكلاسيكي الذي يفترض انتهاء الحدث، بل تعاني من "كرب الصدمة المستمر (CTS) "و"الارتياب الأنطولوجي"؛ نتيجة لوجودها في بيئة تفتقر لأدنى مقومات الأمان المكاني والزمني، مما يجعل صدمتها مفتوحة على المستقبل دائماً.

2. **هشاشـة الأنـا أمـام التكـرار** :كشف التحليل عن أن الفقد المتكرر يسبب حالة من "الإنهـاك الـوظيفي" للمنظومـة الدفاعيـة للشخصـيات، ممـا يـدفعها فـي المراحـل الأولـى إلـى التتـرس خلـف آليـات بدائيـة ونكوصـية، كالإنكـار والانفصـال العـاطفي والتبلد الوجداني، كحل إسعافي يحول دون انهيارها الذهاني.

3. **التسـامي كـأداة بقـاء** :بـرزت آليـات الـدفاع الناضـجة (كالتعقلنـة، البحـث عـن المعنـى، والتسـامي) كـأدوات مقاومـة وجوديـة؛ حيـث اسـتطاعت بعـض الشخصـيات، وسـط فوضـى المـوت العبثـي، إعـادة صـياغة مآسـيها عبـر الفعـل الإبـداعي، أو التكـاتف الإنسـاني، أو الـتهكم السـاخر، ممـا يؤكـد انتصـار غريـزة الحياة على ثقافة الفناء.

4. **الأدب بوصـفه آليـة دفـاع جماعيـة** :خلـص البحـث إلـى أن فعـل الكتابـة السـردية نفسـه، لـدى الكاتبـة عاليـة طالـب، يمثـل "آليـة تسـامٍ" كبـرى، تحـاول مـن خلالهـا معالجة الصدمة الجمعية للمجتمع العراقي وإعادة هيكلة ذاكرته الجريحة.

ثالثاً: التوصيات

1. **توسيع دائرة النقد النفسي** :نوصي بتوسيع نطاق المناهج النفسية–التحليلية في قراءة الأدب العراقي ما بعد عام 2003، وعدم الاكتفاء بالمنهج السوسيولوجي؛ لأن الأزمات المعاصرة شوهت البنية الداخلية للفرد العراقي بقدر ما دمرت بنيته المجتمعية.

2. **دراسات مقارنة في أدب الصدمة** :نقترح إجراء دراسات مقارنة بين أدب "عالية طالب" وأدبيات الكوارث في أمم أخرى (كأدب ما بعد الهولوكوست أو أدب الحروب الأهلية)، لاستكشاف المشتركات الإنسانية في آليات الدفاع النفسي ضد الموت.

3. **توظيف الأدب في العلاج النفسي** :الاستفادة من هذه المدونات السردية في ميدان "العلاج بالقراءة(Bibliotherapy) "، لمساعدة ضحايا الحروب والأزمات المستمرة على فهم صدماتهم وإدراك آليات دفاعهم من خلال التماهي مع شخوص الروايات.

قائمة المصادر

1. إريكسون، إريك .**الطفولة والمجتمع**، ترجمة: عبد المجيد شكري، دار المعارف، القاهرة.
2. باركس، كولن موراي .**الفقدان: الحزن في الحياة النفسية**.
3. باشلار، جاستون،(2006م) .**جماليات المكان**، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط6.
4. عالية ، طالب، نوافذ موصدة (مجموعة قصصية)
5. عالية طالب،(2017م)، رواية قيامة بغداد، ط2، بغداد
6. عالية، طالب **قيامة بغداد** .
7. فان دير كولك،(2022م)، بيسيل .**الجسد يحفظ التسجيل: العقل والدماغ والجسد في شفاء الصدمة**، ترجمة: تارق عكاوي، دار الخيال،ط1.
8. فرانكل، فيكتور،(1982م)،**الإنسان يبحث عن المعنى: مقدمة في التسامي بالنفس**، ترجمة: د. طلعت منصور، دار القلم، الكويت، ط8.
9. فرويد، آنا .**الأنا وميكانيزمات الدفاع**، ترجمة: د. صلاح مخيمر، دار المعارف، القاهرة.
10. فرويد، سيغموند، **الحداد والاكتئاب**، ترجمة: عبد المنعم المليجي، دار المعارف، القاهرة.
11. فرويد، سيغموند، **الكبت**، ضمن موسوعة التحليل النفسي، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.
12. فرويد، سيغموند، **النكتة وعلاقتها باللاوعي**، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.
13. فرويد، سيغموند، **ما وراء مبدأ اللذة**، ترجمة: إسحق رمزي، دار المعارف، القاهرة.
14. فينيشيل، أوتو، **نظرية التحليل النفسي في العصاب**، ترجمة: د. صلاح مخيمر، دار المعارف، القاهرة.

15. ماي، رولو، **اكتشاف الوجود في علم النفس والطب النفسي.**
16. هيرمان، جوديث، **الصدمة والتعافي: تداعيات العنف، من الإساءة المنزلية إلى الإرهاب السياسي.**
17. يالوم، إيرفين، (2021م)،**العلاج النفسي الوجودي**، ترجمة: محمد حبيب، منشورات تكوين، ط1.

المراجع الأجنبية:

1. Caruth, Cathy. Unclaimed Experience: Trauma, Narrative, and History. Johns Hopkins University Press, 1996.
2. Janoff-Bulman, Ronnie. Shattered Assumptions: Towards a New Psychology of Trauma. New York: Free Press, 1992.
3. Lifton, Robert Jay. Death in Life: Survivors of Hiroshima. University of North Carolina Press, 1991.
4. Straker, Gillian. "The Continuous Traumatic Stress Syndrome: The Single Therapeutic Interview". Psychology in Society, 1987.
5. Vaillant, George E. Adaptation to Life. Harvard University Press, 1977.